أهمية علم البلاغة عند أبي حيان الأندلسي(ت745هـ)
من خلال مقدمة تفسيره البحر المحيط

عثمان أبوسعيد
طالب في سلك الدكتوراه، مختبر الدراسات والأبحاث الإسلامية
جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية
المغرب

تمهيد

علم البلاغة أحد أركان اللسان العربي، قال ابن خلدون: «أركانه- أي اللسان العربي- أربعة وهي اللّغة والنّحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضروريّة على أهل الشّريعة»[1]. وفائدته تمِيّزُ حسن الكلام، وهو الدَّالُ على إعجاز القرآن، وبه يعلو كلام رب الناس على كلام الناس، ومعرفته ضرورية على أهل الشريعة.

وأشد الناس إليه المفسّرون، ولذلك عدَّه أبو حيان من العلوم التي يحتاجها المفسر[2]، قال: «الوجه الثالث: كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع. وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله محمد بن سليمان النقيب، وذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه في التفسير، وما وضعه شيخنا الأديب الحافظ المتبحر أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري القرطاجني، مقيم تونس، المسمى منهاج البلغاء وسراج الأدباء وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير، رحمه الله تعالى»[3].

وهذا تنظير تأسيسيٌّ لعلم البلاغة ودوره في علم التفسير، جمع بين ثمرته، وبعض المصنفات فيه، مع التنبيه على ضرورة الأخذ عن الشيوخ فيه، وقد لقي القبول ونقله أئمة كبار في مدوناتهم، مثل الزركشي(ت794هـ) في النوع الحادي والعشرين من أنواع علوم القرآن[4]، وإن كان لم يشر إلى أن الكلام لأبي حيان، وابن عقيلة(ت1150هـ) في النوع الثالث والأربعون بعد المائة علم معرفة شروط المفسر وآدابه[5]، نقل كلام أبي حيان في الوجوه السبعة التي يحتاجها المفسر.

وفي هذا المقال سأبسط القول فيه، من خلال مبحثين؛ الأول خصصته لمفهوم علم البلاغة، وأهميته في التفسير عامة وعند أبي حيان خاصة، والمبحث الثاني للمؤلفات البلاغية التي رُشحَت في مقدمة البحر المحيط، والتنبيه على أهمية التلقي من الشيوخ في هذا العلم، وخاتمة تضمُّ أهم النتائج والخلاصات.

المبحث الأول: تعريف علم البلاغة وأهميته عند أبي حيان

لفت التطور التاريخي لعلوم البلاغة أنظار العلماء والباحثين[6]، فأقبلوا على دراسة مؤلفات هذا الفن منذ نشأته، ابتداء من كونه ملاحظات في عصور الجاهلية وصدر الإسلام، مرورا بتدوين هذه الملاحظات مع أبي عثمان الجاحظ(ت255هـ)، ثم دراسات منهجية مع ابن المعتز(ت296هـ) وغيره، فازدهار أنتج وضع نظريات مثل نظرية النظم مع عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ)، وتطبيقها الأمثل مع جار الله الزمخشري(ت538هـ) في كشافه، إلى تقعيد القواعد مع السكاكي(ت626هـ) في القسم الثالث من مفتاحه، ومختصراته أخص بالذكر الخطيب القزويني(ت739هـ)، وما دار حوله من شرحات.[7]

وشِعاب هذا العلم متنوعة، فباعتباره يهتم بنقد الكلام تحسينا وتقبيحا، تكلم فيه نقاد الشعراء والأدباء، وكونه ينظر في الإعجاز ويرد عن شبهات الملحدين والشكاكين في معجزة القرآن، خاض غماره المتكلمون، وكونه مختص بالقرآن لا يجد المفسر بدا من الخوض

فيه بل هو أحق الناس به، يقول ابن خلدون: «واعلم أنّ ثمرة هذا الفنّ إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن...وأحوج ما يكون إلى هذا الفنّ المفسّرون»[8]

وقدمت بهذه التوطئة ليعلم صعوبة تحديد مفاهيمه، ابتداء من التسمية، ثم تقسيمه، ثم موضوعات كل قسم.

والذي يعني الباحث هو علم البلاغة الموجودة في القرآن الكريم عامة، وكيف تناولها أبو حيان خاصة.

المطلب الأول: تعريف علم البلاغة

1- البلاغة لغة: من بلغ: يبلغ بلوغا، وصل إلى الشيء وانتهى، ومنه رجل بليغ حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه وضميره، والبلاغة الفصاحة.[9]

2- البلاغة اصطلاحا:

من أوائل من اهتم بوضع حدٍّ للبلاغة أبو عثمان الجاحظ، فقد جمع تعاريف البلاغة عند العرب وغيرهم، ثم اختار تعريفا بانَ له قال: «وقال بعضهم- وهو أحسن ما اجتبيناه ودوناه-: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يُسابِق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[10].

وهو تعريف يجمع بين أهمية اللفظ والمعنى، هذه الثنائية التي سينبثق عنها حديث عن مصطلح صِنْوٍ للبلاغة وهو الفصاحة.

والفصاحة لغة خلوص في شيء ونقاءه وبيانه وظهوره، ومن ذلك أفصح اللبن: سكنت رغوته. وأفصح الرجل: تكلم بالعربية، رجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ[11].

فهذا التداخل اللغوي سيثمر اضطرابا في المعنى الاصطلاحي، فمن العلماء من يعتبر الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما.

ومنهم من فرق بينهما فاعتبر أن الفصاحة خاصة بالألفاظ باعتبارها تمام آلة البيان، وقصر البلاغة على المعنى، وعرف البلاغة بـ:« والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فكأنها مقصورة على المعنى »[12].

وابن سنان الخفاجي(ت466ه) يذهب إلى أن الفصاحة وصف خاص بالألفاظ، أما البلاغة فهي عامة في اللفظ والمعنى، بدليل أن الكلمة المفردة لا توصف بالبليغة ويقال فيها فصيحة، ولهذا قرر أن كل كلام بليغ فصيح ولا عكس.[13]

وابن الأثير(ت637ه): يعبر عن هذا العلم بالبيان بمفهومه الشامل، ويعتبر أن موضوعه الفصاحة والبلاغة، وحاول التفريق بين الفصاحة والبلاغة، غير أن كلامه ما هو إلا شرح لكلام ابن سنان قبله.[14]

ثم جاء أبو يعقوب السكاكي (ت 626ه)، فجمع ما ألف من قبله، ونظر وفحص، وأفاد منهم وقعَّد القواعد وسنَّ القوانين، حتى صار لحظة فارقة في علم البلاغة، وذلك من خلال قسمه الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"، وبرز معه التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة، أما البلاغة عنده فهي: «بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[15]. وهو تعريف يظهر أن علم البلاغة عنده يرجع إلى علم المعاني وعلم البيان باصطلاحهما الضيق عنده.

على أن أشهر تعريف للبلاغة درج على استعماله المتأخرون تعريف الخطيب القزويني(ت739ه) صاحب "تلخيص المفتاح"، وشرحه الموسوم بالإيضاح، فهو يعرف بلاغةَ الكلامِ بأنها: «مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»[16].

3- أقسام البلاغة

نال تقسيم أبي يعقوب السكاكي للبلاغة قبولا حسنا عند من خلفه، حتى صار تقسيما موحدا، وأصبحت علوم البلاغة تنقسم ثلاثة أقسام، ولعل تشربَه للمنطق، وإعماله إيَّاه في تقسيم البلاغة، وإعطاءَ كل فن من فنونها تعريفا مضبوطا، وعناية العلماء بعده بالقسم من المفتاح، تلخيصا وشرحا، أشياء تضافرت لإرساء هذا التقسيم الثلاثي للبلاغة: المعاني، والبيان، والبديع.

القسم الأول: علم المعاني

عرفه القزويني بقوله:« علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال»[17]. وحصره في ثمانية أبواب: أحوال الإسناد وأحوال المسند إليه، وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل، والقصر والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة.

القسم الثاني: علم البيان

وجب الإلماع إلى أن علم البيان من المصطلحات التي تم تقييد دلالتها عند المتأخرين، بعد أن كانت دلالتها مطلقة عند المتقدمين، حيث كان البيان عند هؤلاء مرادف لعلم البلاغة. أما عند أولئك فقد صار قسيم المعاني والبديع باعتباره أحد الأقسام الثلاثة للبلاغة، عرفه أبو يعقوب السكاكي بأنه: «معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان»[18]، وانحصرت مباحثه في أبواب ثلاثة: التشبيه، والحقيقة والمجاز، والكناية. وكل باب يحتوي فصولا عدة.

القسم الثالث: علم البديع

ما قيل عن البيان ينطبق على علم البديع، كونه من المصطلحات التي ضُيق نطاقها عند المتأخرين، ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية – البديع – لم ترد عند السكاكي، وإن وُجدِت مادتها، بخلاف علمي المعاني والبيان فقد وسمهما وعرفهما، ويستنبط من كلامه عن هذا العلم أنه يسميه المحسنات، يقول قبيل الشروع فيه:« فها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين فلا علينا أن نشير على الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع على المعنى وقسم يرجع على اللفظ»[19].

ولعل ابن الناظم بدر الدين بن مالك(ت686ه) هو أول من نص على هذه التسمية في كتابه "المصباح" والذي قسمه ثلاثة أقسام: المعاني، والبيان، والبديع. وقال في القسم الثالث: «في علم البديع وهو معرفة توابع الفصاحة»[20].

وبهذه التسمية أخذ الخطيب القزويني، ومن جاء بعده، يقول: «الفن الثالث علم البديع: وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة»[21].

ثم يقسم هذه المحسنات تبعا لتقسيم السكاكي إلى معنوية ولفظية، فالمعنوية تشمل المطابقة، ومراعاة النظير، والإرصاد، والمشاكلة، وغيرها، ثم اللفظية منها الجناس، ورد العجز على الصدر، والسجع، والموازنة، والقلب، والتشريع، ولزوم ما لا يلزم.

كانت هذه لمحة خاطفة عن التطور التاريخي لعلم البلاغة حتى استقر به الحال إلى التقسيم الثلاثي المشور عند المتأخرين، ولا يفهم من هذا أنه تقسيم نال إجماع الأدباء والبلغاء، بل كثيرا ما وُجدت اختلافات في التسميات وعد أنواع من فنون البلاغة داخل الأقسام، وقد قال ابن الأثير(ت638ه):« شيئان لا نهاية لهما: البيان، والجمال»[22]. ولعل اللانهاية للبيان تفسر هذه الاضطراب في تحديد هذا العلم والاتفاق على اصطلاحاتها.

والشاهد على هذا الكلام أن أبا حيان الذي جاء بعد أبي يعقوب السكاكي، وعاصر الخطيب القزويني، لم يتبنَّ هذا التقسيم، بل له اصطلاحات خالف فيها السواد الاعظم من علماء البلاغة مثل التجريد كما سيظهر عند الحديث عن تأثير شيخه ابن الزبير عنه، وأما مفهوم علم البلاغة عنده فأحاول الكشف عنه من خلال تتبع كلامه تنظيرا وتطبيقا، داخل البحر المحيط.

4– مفهوم البلاغة عند أبي حيان

لكشف معنى البلاغة عند أبي حيان نظرة أولا في مقدمته باعتبارها الجانب النظري من تفسيره، وقمت بجرد المصطلحات والعبارات الدالة على علم البلاغة من بداية خطبته إلى نهاية مقدمته، حين شرح قيود تعريف علم التفسير، ويمكن أن أسجل الملاحظات الآتية:

– تسمية هذا العلم **بالبيان والبديع**: وهي أكثر تسمياته ورودا، ومثال ذلك أثناء عرض منهجه في التفسير، يقول:« بحيث إني لا أغادر منها كلمة، وإن اشتهرت، حتى أتكلم عليها، مبديا ما فيها من غوامض الإعراب ودقائق الآداب من بديع وبيان»[23]، وأنه يختتم الكلام عن الآيات التي فسرها إفرادا و تركيبا بما ذكره العلماء فيها من علم البيان والبديع ملخصا[24]، وهي العبارة التي اختارها عند ذكر العلوم التي يحتاجها المفسر[25]، وبها شرح قيد تعريفه للتفسير، يقول: «وقولنا وأحكامها الإفرادية والتركيبية هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع»[26]

– مسميات أُخَرُ ورد ذكرها في مقدمة البحر المحيط وهي: **علم البيان** دون ذكر علم آخر معه[27]، ويذكره حين آخر مقترنا بمصطلح آخر، مثل **علم الفصاحة والبيان والإعجاز**[28]، أو **علم البلاغة والبيان**[29]، كما أنه نقل نص كلام الزمخشري والذي سماه بعلم **المعاني والبيان**[30]، ولذلك يعبر أبا حيان عنه **بالمعاني**[31].

– البلاغة والفصاحة عند أبي حيان تكون في اللفظ والتركيب، يقول: «الوجه الثالث كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح: ويؤخذ ذلك من **علم البيان والبديع**»[32]، ويتحرر من حصر الفصاحة في اللفظ أو البلاغة في المعنى، ولذلك يستعيض بذكر إحداهما عن الأخرى.

ولكي أستكمل ألقي لمحة خاطفة عن الجانب التطبيقي للبلاغة عنده.

– قال بعد تفسير البسملة: « وفي التسمية من **ضروب البلاغة** نوعان: أحدهما: **الحذف**، وهو ما يتعلق به الباء في بسم، والنوع **التكرار في الوصف**»[33]

– بعد الانتهاء من تفسير سورة الفاتحة لخص ما ذكره من علم البيان فقال: «وفي هذه السورة الكريمة من **أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع**»[34]

– قال في ختام تفسير الآيتين الخامسة والسادسة من سورة البقرة قال: « وذكروا أيضا أن في هاتين الآيتين **من ضروب الفصاحة أنواعا**»[35]

– عَقِبَ نهاية تفسيره لآيات من سورة النساء، ذكر أنواعا من علوم البلاغة، قال: «وتضمنت هذه الآيات **من البلاغة والبيان والبديع**»[36]. وقال بعدها: «وتضمنت هذه الآيات أنواعا من **البلاغة والبديع**»[37].

وفي هذه النماذج استخلاص مفهوم البلاغة عند أبي حيان فأقول:

– أن البلاغة عند أبي حيان هي معرفة حسن الألفاظ والتراكيب، وهو غير مقيد بتقسيمات أبي يعقوب السكاكي ومن بعده، وإنما يطلق على هذا العلم حينا البلاغة، ومرَّةً الفصاحة، وتارةً البيان والبديع، وتارة المعاني. فهي كلها مصطلحات وظيفتها بيان حسن وجودة التراكيب، ودليل إعجاز كلام الله المنزل.

وبعد هذا التجوال في معنى علوم البلاغة وتاريخها، ووظيفتها عند أبي حيان، أتلو هذا بمطلب ثانٍ يكشف النقاب عن أهميتها في التفسير عامة وفي البحر المحيط خاصة.

المطلب الثاني: أهمية علم البلاغة في تفسير أبي حيان

1– أهمية علم البلاغة في التفسير عموما

هذه العلم الذي حدث في الملة من حيث القواعد والاصطلاحات، قد استفاد في كل أطواره من الدراسات القرآنية، أخص بالذكر تلك التي حاولت إماطة اللثام عن وجه إعجاز القرآن الكريم. بداية مع كتابات الجاحظ[38](ت255ه) ومن كان قبله، مرورا بأبي عبد الله الواسطي[39](ت306ه)، ثم أبي الحسن علي بن عيسى الرماني[40](386ه)، فأبي سليمان الخطابي[41](ت388ه)، ثم القاضيين، الأشعري أبي بكر الباقلاني[42](ت403ه)، والمعتزلي عبد الجبار الهمداني[43](ت415ه)، ولا يجمل ذكر هؤلاء وإغفال فارس ميدان الإعجاز وكاشف سر البلاغة أبي بكر عبد القاهر الجرجاني[44](ت471ه)، وغيرهم.

والحق أن موضوع إعجاز القرآن مبحث أسالَ أوديةً من أقلامِ علماءِ الإسلام على اختلاف مللهم ونحلهم، وذلك أنهم اتفقوا على كونه معجز بالإجماع، ولكن بأي الوجوهِ أعجزَ هنا وقع الاختلاف.

والوعي بأهمية علم البلاغة لازمَ المدونات التفسيرية منذ بداياتها، وما ذلك إلا لأصالته في فهم المعنى واستخراج دره وجواهره، فشيخ المفسرين الطبري يؤكد على أن القرآن نزل بلسان العرب، وما دام لسانهم يشمل مباحث بلاغية من الإيجاز والاختصار والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، فكذلك القرآن يضم هذه المسائل، ثم يصرح بأن منهجه تبيين كل مسألة بلاغية ونكتة بيانية في معرض وقوعها في القرآن الكريم[45].

وهذا جار الله الزمخشري أقضَّ مضجعَ الأمة بنزعته الاعتزالية، ودفاعه عن عقيدته، ورغم ذلك لم يَنْأَ عنه العلماء، ولا غضُّوا الطرف عن كشافه، وشفيعه في ذلك أنه فارس فصاحةٍ وبيانٍ، فغفروا إساءته لإحسانه.

وهو يؤكد على أهمية علم البلاغة في مقدمته، فعنده جار الله علم التفسير لا يجسر عليه أي أحد، حتى يكون بارعا: «في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللَّه»[46].

وقبل أن أتناول أهمية علم البلاغة عند أبي حيان خاصة، لا يسعني تجاوز عمل فريد، وهي مقدمة تفسير ابن النقيب[47](ت698ه)، فَجَعْلُ مقدمة بين يدي تفسيرٍ عظيمٍ، في علم البلاغة وبيان إعجاز القرآن، برهانٌ ساطعٌ على أهمية هذا العلم وافتقار المفسر إليه.

فابن النقيب يؤكد على أن الله أودع كتابه ضروبا من الفصاحة والبلاغة، فلا يعرف فضل كتابه إلا عارف بكلام العرب، لغة ونحو وبيانا، وخبر أجناسهم الأدبية، ثم يقارن بين إنتاجهم وما أُنزل عليهم، فيلحظَ خروج هذا الأخير عن قدرتهم، وعجزهم عن مجاراته وهم الفصحاء اللسنُ، رغم تسفيهِ أحلامِهم، وهم الذين إذا سيموا خسفا أَبَوْا.[48]

ولذلك قرر أن يضع في هذه المقدمةِ أصولا مؤصلة، وفوائدَ محصلة، من علم البيان، الواقع أمثالها في القرآن. وما ذلك إلا إحياء له، باعتباره الوسيلة إلى استنباط المعاني الكامنة في القرآن الكريم، يقول: «فما من علم من العلوم الإسلامية رمي بالهجر والنسيان ما رمي به علم البيان. ولو أداموا النظر فيه والتلمُّح لمعانيه لاطلعوا من الكتاب العزيز على خفايا تهِشُ لها القلوب، ودقائق تسْفِر لهم عن وجوه المطلوب»[49].

وأما من أعرض ونأى بجانبه عن هذا العلم الشريف، فهو عند ابن النقيب بمعزل عن فهم دقائق الكتاب، مخلٌّ بحقوق المنْزِل والمنزَّل.[50]

2– أهمية علم البلاغة في تفسير البحر المحيط

لقد اصطبغ البحر المحيط بمنهج مؤلفات تفسيرية عديدة، وفي طليعتها بنص أبي حيان الكشاف للزمخشري، والمحرر الوجيز لابن عطية، والتحرير والتحبير لابن النقيب، وهي كلها أولت اهتماما بالنزعة البلاغية البيانية، فالزمخشري نظَّر للبلاغة وأسهب في تطبيقها، وابن عطية طبقها وإن لم يصل درجة جار الله أبي القاسم، وابن النقيب أصل وقعد لعلم البلاغة القرآنية.

كل هذه البحور صبت في محيط أبي حيان وأفاد منها إفادة جمة، فلا غرو أن يُولِيَ أهمية قصوى بعلم البلاغة تنظيرا وتطبيقا. ولكي أبرز هذا، عدت إلى مقدمته، فوجدتُه نثر أهميتها في مواضِع عدة، فرتبتها وهذبتها فتلخص لي الآتي:

– علم البلاغة سبيل الغوص في معاني القرآن وكشف غوامضه وبيان إعجازه.

ينصُّ أبو حيان على أن علم البلاغة سبب لإدراك لطائف ودقائق تفسير القرآن الكريم، قال: «وأضيفُ إلى ذلك ما استخرجَتْه القوة المفكرة من لطائف علم البيان، المطَلِع على إعجاز القرآن... فكم حوى من لطيفة فكري مستخرجها، ومن غريبة ذهني منتجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية، والنظر في التراكيب النحوية، والتصرف في أساليب النظم والنثر، والتقلب في أفانين الخطب والشعر»[51].

ولا سبيل عنده إلى إدراك إعجاز القرآن إلا من خلال علم البلاغة، والتوغل فيها كل الإيغال، فيتبين له أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة ونهاية من البلاغة، معارضته تستحيل على البشر، ولا داخلة تحت القدر.[52]

وأما فاقد هذا العلم فهو بمنأى عن كشف غوامض التنزيل، ولا يعدوا أن يكون مجترا لكلام المفسرين[53].

وبهذا يُفهم إكباره وإجلاله للعلَمين في التفسير الزمخشري وابن عطية، وحيازتهما قصبات السبق عنده، فقد أنتج تقدمهما في علم البلاغة الفهم الدقيق والغوص العميق[54].

– علم البلاغة أساس من أسس منهج أبي حيان في التفسير

بيّن أبو حيان معالِم منهجه التفسيري في مقدمة البحر، وأنقل ما يعنيني في هذا الموضِع رجاء التماس أهمية علم البلاغة منه، يقول: «وترتيبي في هذا الكتاب... بحيث إني لا أغادر منها كلمة، وإن اشتهرت، حتى أتكلم عليها، مبديا ما فيها من غوامض الإعراب الآداب من بديع وبيان...ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها إفرادا و تركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع، ملخصا»[55].

نستنبط من هذا النقل أن علم البلاغة يكتسي أهمية بالغة عند أبي حيان، فهو يذكر ما حملته الألفاظ ودلت عليه المعاني من علم في ثنايا تفسيره وتناوله للآيات، ثم يختتم الكلام عنها إجمالا بذكر ما حوته من هذا العلم الشريف، وهذا دليل على عنايته الكبيرة بعلم البلاغة ووعيه بأوليَّته في فهم أسرار التنزيل[56].

– علم البلاغة من آكد العلوم التي يحتاجها المفسر

سبقت الإشارة إلى أن أبا حيان لا يجيز لأحد تفسير كتاب الله تعالى دون الإحاطة بعلوم سبعة، ثالها من حيث الترتيب علم البلاغة، ذلك أن الكلام ينظر إليه من حيث الإفراد والتركيب، فباعتبار مفرداته جعل علم اللغة أولا، وذكر النحو والصرف ثانيا إذ بهما تعرف صحة المفردة وسلامة التركيب، ثم بعلم البلاغة ينتقل المفسر من الحديث عن صحة الألفاظ وسلامة التراكيب من اللحن، إلى الكلام عن حسنها وفصاحتها وبلاغتها[57].

– أهلية ومشروعية النظر في التفسير مرتبطة بعلم البلاغة

لا يعتبر أبو حيان علم البلاغة من علوم التكميلية، وإنما يعدُّه من العلوم الواجبة التي يستبيح به المفسر خوض غمار النظر في كتاب الله تعالى، خاصة مع وجود النهي النبوي، رُوي عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ»[58].

وقد تبع أبو حيان ابنَ عطية في حمل هذا الحديث على من تسور على تفسير القرآن دون النظر في قوانين العلوم المختصة بالتفسير[59].

ولذلك فمن ملك زمام البلاغة والبيان تعليما وممارسة، فله الأهلية للنظر في كتاب الله تعالى، وتعاطي التفسير، وقد أنصف أبو الزمخشريَّ رغم الخلاف العقدي، فبعد نقل جزء من مقدمة قال: «انتهى كلام الزمخشري في وصف متعاطي تفسير القرآن، وأنت هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهر بجنسه الأدباء، ويقهر بفصاحته البلغاء، وهو شاهد له بأهليته للنظر في تفسير واستخراج لطائف الفرقان»[60]

– علم البلاغة داخل في ماهية تعريفه للتفسير

ولأهمية علم البلاغة عند أبي حيان جعله داخل في ماهية تعريفه لعلم التفسير، والتعريف كما هو معلوم جامع مانع، يقول أبو حيان: «التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمَل عليها حالة التركيب، وتتمَّاتٍ لذلك»[61].

ثم عرف قيوده، فقال في قيد "وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب":« **وقولنا وأحكامها الإفرادية والتركيبية**، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع. **وقولنا معانيها التي تحمل عليها حالة التركيب**، شمل بقوله التي تحمل عليها، ما دلالة التركيب عليه بالحقيقة، وما دلالتُه عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا، ويصدُّ عن الحمل على الظاهر صادٌّ فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر، وهو المجاز»[62].

وهذا تعريف رزق سعادة في الأولين، وخَلَّد لصاحبه ذكرا في الآخرين[63]، فصار لزاما على المتصدي للتفسير التمكن من علم البلاغة، كونه داخل في ماهيته لا ينفك عنه.

المبحث الثاني: المصادر البلاغية التي ذكرها أبو حيان في مقدمته

تقرر أن الاختيار قطعة من العقل، ولا شك أن شادي العلم ليجد أريحية في ترشيحات العلماء للكتب والمصنفات، وأبو حيان عالم عرف بحسن اختياره، ولعل آية توفيقه في الاختيار أن الزركشي ينقل عنه كلامه، لا يحيد عليه قيد أنملة[64].

المطلب الأول: مقدمة تفسير ابن النقيب

أول المصنفات البلاغية التي ذكرها أبو حيان مقدمة تفسير شيخه ابن النقيب[65]،

وتفسير ابن النقيب من الأصول التي اعتمدها أبو حيان في البحر المحيط، وأكثر النقل منها، أخذه إجازة من مؤلِّفه[66].

وابن النقيب يرى أن فضل القرآن لا يعرفه إلا عارف بكلام العرب، فعرف علم اللغة وعلم العربية وعلم البيان[67]، بل يعتبر أن من عليه الشُّقة عن علم البيان، محجوب عن فهم الكلام المنزَّل، ومقصر في حق ا لـمُـنْزِل عز وجل[68].

ولذلك صدَّر تفسيره بمقدمة تأصيلية لعلم البيان العربي، يتوسل بها طالبُ علمِ التفسير إلى فهم خطاب الله تعالى، وتذوق معناه، باعتبارها جامعةً لأصوله وفصوله، باعثة هذا العلم الشريف من مرقده.

وهذه المقدمة هي التي اختارها أبو حيان لتكون عونا للناظر في علم التفسير، ووصفها بأنها أجمع ما ألف في علمي البيان والبديع.[69]

وقد نص مصنِّفُها على أنه جمعها من ثلاثة مصادر؛ أولها: كتب البلاغة التي تقدمته ووقف عليها، وثانيها: فوائد وفرائد نقلها مشافهة عن علماءٍ أعلامٍ، وآخرها: ما فتح الله به بصيرته، ومنَّ عليه من منح شخصية[70].

أما موضوعاتها، فقد جاءت في: فخطبة بيَّن فيها فضل القرآن، وكشف غرضه من الكتاب ومصادره. ثم مقدمة عن مفهوم البلاغة والفصاحة والفرق بينهما، وعقد مقدمة ثانية تناول فيها الحقيقة والمجاز من حيث الاشتقاق والحد والأقسام.

لينتقل إلى الفن الأول وهو ما يتعلق بالمعاني من البلاغة، وجعله أربعة وثمانين قسما، ثم صرف الحديث عن الفن الثاني فيما يتعلق بالألفاظ من الفصاحة ويطلق عليه اسم البديع، وهو عنده أربعة وعشرون قسما.

ولما كان هذا الكتاب مقدمة لتفسيره، ذكر بعد الفن الثاني بيان اشتقاق ألفاظ لها عُلقة بالقرآن، وهي: السورة، والآية، والكلمة، والحرف. ولم يفته تخصيص فصل لإعجاز القرآن الكريم. ثم ختم كتابه بفصل بمثابة فهرسة لفنون البلاغة التي تناولها بالشرح والتمثيل، أوصلها إلى مائة وعشرين قسما.

والكتاب مطبوع باسم: مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، للإمام أبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي، الشهير بابن النقيب والمتوفى 698هـ.[71]

المطلب الثاني: " منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني

ثاني المصنفات التي رشحها أبو حيان كتاب شيخه حازم القرطاجني[72]، وبهذا الاختيار جلب أثير الدين تنوعا لترشيحاته، فجمع بين مصنَّفٍ اهتم بالتمثيل والبلاغة القرآنية رأسا وهي مقدمة ابن النقيب، وكتابٍ اهتم بالتنظير ولا يورد التمثيل إلا لمما، والسمة الغالبة عليه نقد الشعر، وهو"منهاج البلغاء وسراج الأدباء".

وكما يقال الشهادة بقدر الشهود، فأبو حيان يصف أستاذه بأنه المستبحرُ ورئيسُ الأدباء وأوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان[73].

وأما كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"[74]، فهو فريدٌ في بابه، مبتكرٌ في وضعه ومصطلحاته، الأمر الذي جعل أبا حيان يفرق بينه وبين مقدمة ابن النقيب، فيصف عمل ابن النقيب بالجمع، وعمل حازم بالوضع[75]، فلفظ الجمع غير الوضع[76].

وموضوعُ الكتاب البلاغة ونقد الشعر، وتبقى جِدَّته في كونه أول مصنَّف لعالم بلاغيٍّ ليس معدود في الفلاسفة يعرض لنظرية أرسطو في الشعر والبلاغة، من خلال ما عرضه ابن سينا(ت428ه) في كتابه "الشفاء"، ومحاولة تطبيق هذه النظرية العربي[77].

وأتى حازم بتقسيم فريد لكتابه ومصطلحات خاصة به، فجاء في أربعة أقسام كبرى، أولها مفقود، وثانيها في المعاني، وثالثها في المباني، وآخرها في الأسلوب. وجعل كل قسم أربعة أبواب أطلق عليها مصطلح **مناهج**، تتضمن فصولا يطلق عليها حازم **معلم** أو **معرف** على التوالي، وسمى فقرات كتابه على التعاقب **إضاءة وتنوير**، وفي الأغلب يختم فصوله بملاحظات بلاغية تحت عنوان **مأمّ** أو **مآم** إفرادا وجمعا[78].

وأما شواهد الكتاب فتنوعت ودلت على سعة اطلاعه، فهو يستشهد بالأساليب القرآنية، والأشعار العربية سواء الجاهلية أو الإسلامية وعدم استشهاده بأقوال الكتاب، وهذا ينساق مع مقصد كتابه الذي جعله في نقد الشعر.[79]

والكتاب مطبوع بتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة[80]، فُقِدَ منه القسم الأول، وحُفِظت الأقسام الثلاثة الأخيرة.

وكتاب حازم على جلالة قدره كان خافت الذكر قديما وحديثا في الدراسات التفسيرية والقرآنية، بل إن أبا حيان لم يورد ذكره في ثنايا تفسيره لآي القرآن. ولذلك يهجم على الباحث سؤال مفاده: هل كان اختيارُ أبي حيان كتابَ شيخه حازم مبني على أساس علمي منهجي أم هو من قبيل الوفاء بحق الأستاذية والمشيخة؟

وقبل الإجابة لابد من الإشارة إلى أن اختيارات أبي حيان يغلب عليها طابع الدقة فما من كتاب ذكره إلى وله مكانته في علمه، بل الكتاب يكون خاملَ الذكر وبعد إيراده في البحر المحيط وثناء أبي حيان عليه يبعثه حيًّا إلى الساحة العلمية، وهذا عين ما وقع لكتاب "منهاج البلغاء"، خاصة في كتب التي سببٌ بالقرآن كالتفسير وعلوم القرآن، يقول أستاذي أحمد نصري:« إن السيوطي والزركشي من علماء التفسير اعتمدا في نقولهما كثيرا على أبي حيان ... فليس من الغريب أن تقع نواظرهم على تزكية الشيخ أبي حيان لكتاب أستاذه حازم ... ولعل هذا ما يفسر لنا أننا لا نجد ذكرا لحازم في الدائرة البعيدة عن أبي حيان من علماء البلاغة والتفسير وأن من ذكر حازما وكتابه كان له اتصال أو شبهه بصاحب البحر المحيط أبي حيان الأندلسي»[81].

فلا غرو أن الكتاب حقيقٌ بالمكانة التي وضعه فيها أبو حيان، ولكنه يحتاج عنايةً خاصة من المشتغلين بالتفسير وعلومه، كون مؤلِّفه أعرض عن التمثيل والاستشهاد بالآيات القرآنية، أضف إلى ذلك صعوبة لغة مؤلفه وما خالطها من مصطلحات منطقية[82]، والدليل على ذلك قول أبي عبد الله محمد ابن القوبع(ت738 ه.):« ولما وقفت على قوانين هذا الكتاب ووعيتها وإن كان ترك التمثيل لها، صار كل ما أقرأه وأنظر فيه من كلام بليغ أو بديع، يصير كله لي أمثلة لتلك القوانين»[83]. فلا مناص من الوعي التام، والتدبر والروية، لإدراك مكنون الكتاب والإفادة منه إفادة قصوى، وربط ما سطره من قوانين بما جاء في القرآن الكريم.

وقد حاول عبد الواحد الصمدي كشف النقاب عن أثر حازم البلاغي في مصنفات علوم القرآن[84]، من خلال عرض مسائل نقلها علوم القرآن عن حازم، واقتصر في عرضه على كتاب الزركشي(ت794ه) باعتباره أصل لما نقله السيوطي(ت911ه)، وابن عقيلة(ت1150ه)، ولم يرمْ الحصر لذلك اكتفى بأربعة نماذج وهي السجع، ووجه الإعجاز، وأسباب الحذف، والقلب.[85]

وهو بحث فاتح لهذا الباب – أي أثر أبي الحسن حازم في الدراسات القرآنية عموما والتفسير خصوصا–، فهو يظهر كيف طبق الزركشي بعض القوانين البلاغية الواردة في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء".

على أنه بحث ينطلق من ورود كلام حازم ضمن مصنفات علوم القرآن، وهو أمر محمود، غير أنه يضيق تأثير حازم، وحصره في ما نُقل عنه، ولذلك يمكن الانطلاق من كتاب حازم بعد وعْيه وتدبره، ابتغاء تطبيق قوانينه البلاغية على البلاغة القرآنية، تطبيقا لمنهج أبي عبد الله محمد ابن القوبع السالف الذكر.

ومثال ذلك لو أُخذ حديث حازم في كلامه على طرق العلم بما يجب في المطالع والمقاطع[86].

ثم تأمل مليا، وقُرب إلى الأفهام بشرح يسير، وكُشفَت غوامضه[87]، ثم ينظرُ في مطالع السور القرآنية، لتلمس الأوجه البلاغية في استهلالها، وحسن مطلعها، ودلالتها على غرض السورة، ومقصدها العام.

وأطبقُ ذلك على مطلع سورة آل عمران من خلال ما جاء في البحر المحيط، وسأقتصر على دلالة مطلعها على أهم غرضها، ومعلوم أنها سورة مدنية أهم أغراضها الرد على النصارى عامة ووفد نجران خاصة، من خلال إبطال معتقداتهم الباطل في المسيح عيسى عليه السلام[88].

فأول ما يُلحظ حسن الإبهام وذلك من خلال الحروف المقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ لينبه الفكر على استحضار النظر فيما بعد من الكلام[89]، وهذا الكلام الذي تضمن كلمة التوحيد، ووصف الله نفسه بصفة الحياة الدائمة الباقية، والقيومية الدالة على تدبيره لخلقه مع تمام قدرته[90]، فقال تعالى عن خلقه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ واختياره سبحانه هذه الأسماء والصفات رد صريح على كل كافر ومشرك يجعل لله الندَّ والمثيلَ من خلقه، ويندرج معهم من نزلت السورة بسببهم وهم فد نجران الذين يدعون الألوهية للمسيح عيسى عليه السلام[91].

ثم ذكر سبحانه تشريف الرسول صلى الله عليه وسلم بالوحي وبإنزال الكتاب بالحق والعدل، وأنه مصدقا لما بين يديه من كتب الأنبياء، وهذا دليل على صحة المنزَّل وصدق المنزَّل عليه، قال عز جلاله: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾[92]. ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾، فلما كان الكلام أغلبه مع النصارى ذكَّرهم بإزال الثوراة والإنجيل لغاية هداية الناس من قبلُ[93]، ثم كرر ذكر القرآن[94] ووصف ومدحه بكونه يفرق بين الحق والباطل، سواء في الاعتقاد أو التشريع، قال ابن عطية:« والْفُرْقانَ: القرآن، سمي بذلك لأنه فرق بين الحق والباطل، قال محمد جعفر، فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام، الذي جادل فيه الوفد»[95]، أي وفد نصارى نجران.

ثم لما قرّر الحق سبحانه أمر الإلهية، وصحة النبوة بذكر إنزاله للكتب السماوية، توعد من كفر بآياته بالعذاب الشديد، وأنه سبحانه عزيز ممتنع غالب منتصر ذو عقاب، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، قال أبو حيان:« والذين كفروا عام داخل فيه من نزلت الآيات بسببهم، وهم نصارى وفد نجران»[96].

ولما تعلق النصارى بشبهة إخبار عيسى عليه السلام ببعض الغيوب، وأنه يحيي الموتى، رد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾، مؤكدا على علمه المطلق بالكليات والجزئيات، وقدرته التامة من خلال تصوير ما شاء من الهيئات، وفي ذلك إثبات لقيُّوميته، التي لا

ت .. ك . . . ..تمل إلا بالعلم المطلق والقدرة التامة، فلا يلزم من كون عيسى عالما لبعض الغيوب وقادرا على إحياء بعض الصور أن يكون إلها، ثم كيف لعاقل أن يعتقد في إلهية من ضمه رحم وصور فيه.[97]

ورغبة في تقرير عقيدة التوحيدة في النفوس والردّ على من نسب له الشريك كرر كلمة التوحيد، مع وصف العزة الدال على عدم النظير، والحكمة المخبر بتمام الإتقان في التصوير[98] فقال جل جلاله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فهذا بيان للناس محكم، على وحدانية الله تعالى، وأن عيسى عليه السلام إنما هو رسول قد خلت من قبله الرسل، مؤيد بمعجزات أجراها الله له مثل إخوانه من الأنبياء والرسل، ولكن هناك من يترك الآيات المحكمات البينات، ويتعلق بالمتشابهات، وتميل قلوبهم إليها زيغا منهم عن الحق، سواء في ذلك نصارى نجران أو غيرهم من الطوائف[99]، فنبه الله تعالى بقوله:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقد رأينا كيف أن مطلع سورة ال عمران، دلَّ على مقصودها وموضوعها، في براعة استهلال، وحسن انسباك، وتدرج وترقي، تنم على فوقية كلام الله تعالى على كل كلام بليغ.

المطلب الثالث: تأثير أستاذه أبي جعفر بن الزبير على منهجه البلاغي

لم يكتف أبو حيان بذكر المصنفات وإنما نبه إلى ضرورة التلقي عن الشيوخ، من خلال ذكر شيخه أبي جعفر ابن الزبير[100]، هو أن أبا حيان كرر ذكر شيخه،

كما كان عليه الحال في علم النحو، وهذا بيان ناصع على إجلاله، قال أبو حيان: « وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير، رحمه الله تعالى»[101].

ويظهر تأثر أبو حيان بشيخه على المستوى البلاغي، من خلال التزامه ببعض مصطلحات شيخه البلاغية، ومثال ذلك: عند تفسيره الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ **[سورة البقرة آية 97]**. فالعلماء يبحثون عن النكتة البلاغية والحكمة من تخصيص جبريل وميكائيل عليهما السلام بالذكر رغم في عموم قول الله تعالى و"ملائكته".

فبين أبو حيان أن تخصيص جبريل وميكائيل بالذكر في هذه الآية بسبب ذكر اليهود لهما، وجهرهم بعداوة جبريل، وزعمهم محبة ميكائيل، فهي ذم لهم وتشريف وتنويه بجبريل، حيث اقترن اسمه بالله تعالى من خلال اندراجه في عموم الملائكة، ثم في عموم الرسل، باعتبار أن الرسل تضم الملائكة ورسل بني آدم، ثم خصه بالذكر مجردا مع من يدعون أنهم يحبونه وهو ميكائيل، عليهم الصلاة والسلام أجمعين. ثم في ذكرهما دافع لتعلق اليهود بكونهم لم يعادوا الله تعالى، ولا جميع ملائكته.[102]

والأغلب يسمي هذا النوع بـ: "الإطناب بذكر الخاص بعد العام "[103]، ولكن أبا حيان يسميه التجريد تبعا لشيخه ابن الزبير، يقول:« وقد ذكرنا عن أستاذنا أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، قدس الله روحه، أنه كان يسمي لنا هذا النوع **بالتجريد**، وهو أن يكون

الشيء مندرجا تحت عموم، ثم تفرده بالذكر، وذلك لمعنى مختص به دون أفراد ذلك العام. فجبريل وميكال جعلا كأنهما من جنس آخر، ونزل التغاير في الوصف كالتغاير في الجنس»[104].

وجعل من هذا الباب قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ **[سورة الأنعام آية 39]**. فالدابة تشمل كل ما يدب، فيندرج فيها الطائر، فذِكْر الطائر بعد ذكر الدابة من باب التجريد، قال أبو حيان: «ودابة تقدم شرحها، وهي هنا في سياق النفي مصحوبة بمن التي تفيد استغراق الجنس، فهي عامة تشمل كل ما يدب فيندرج فيها الطائر، فذكر الطائر بعد ذكر الدابة تخصيص بعد تعميم، وذكر بعض من كل، وصار من **باب التجريد** كقوله: وجبريل وميكال بعد ذكر الملائكة. وإنما جرد الطائر لأن تصرفه في الجو – دون غيره من الحيوان– أبلغ في القدرة وأدل على عِظَمها من تصرف غيره من الحيوان في الأرض، إذ الأرض جسم كثيف يمكن تصرف الأجرام عليها، والهواء جسم لطيف لا يمكن عادة تصرف الأجرام الكثيفة فيها إلا بباهر القدرة الإلهية»[105].

وهذا وما سبقه يظهر أثر علم البيان في إدراك أسرار بلاغة القرآن الكريم، وكشف دلائل إعجازه، وما من لفظ لفظ إلا وله حكمة وضعه، علمه من علمه بحسب الطاقة البشرية، أو جهله من جهله.

ولابد من الإشارة أن الوعي بتأثر أبي حيان بشيخه ابن الزبير خاصة، وباقي شيوخه، يجعل الخائض في البحر المحيط يفهم دلالة المصطلحات البلاغية وأصولها، وأنه يمكن أن يدير ظهر لبعض المصطلحات التي ظهرت قبله أو استجدت بعده.

خاتمة

وصلت إلى ختام هذا المقال والذي رمت من خلاله بيان مفهوم علم وأهميته من خلال خطاب مقدمة أبي حيان الأندلسي في خطاب مقدمة تفسيره البحر المحيط.

وقد توصلت إلى النتائج والخلاصات الآتية:

– مفهوم علم البلاغة من المفاهيم التي شهد طورا تاريخيا، بداية مع كتابات الجاحظ ومن قبله، وصولا إلى تقعيدات أبي يعقوب السكاكي.

– البلاغة عند أبي حيان هي معرفة حسن الألفاظ والتراكيب، وهو غير مقيد بتقسيمات أبي يعقوب السكاكي ومن بعده، وإنما يطلق على هذا العلم حينا البلاغة، ومرَّةً الفصاحة، وتارةً البيان والبديع، وتارة المعاني. فهي كلها مصطلحات وظيفتها بيان حسن الألفاظ، وجودة التراكيب، ودليل إعجاز كلام الله المنزل.

– تتجلى أهمية علم البلاغة عند أبي حيان في كونه سبب للغوص في معاني القرآن، واستخراج دره وكشف غوامضه، ودليل إعجازه، ولذلك جعله أساسا من أسس منهجه التفسيري، واعتبره من العلوم الضرورة التي يحتاجها المفسر وتمنحه الأهيلةَ والمشروعيةَ في غماره، وهذا ما حمله على إدخاله في ماهية تعريفه للتفسير.

– نوَّع أبو حيان في المصنفات البلاغية المعينة لطلاب علم التفسير، واكتفى بإيراد مصنفين، الأول مقدمة تفسير ابن النقيب، والتي يغلب عليها جانب التطبيق، وغرضها الأساس البلاغة القرآنية، والثاني منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وهو كتاب في نقد الشعر والبلاغة عموما، غلب عليه التنظير ولم يعر اهتماما بالغا للتطبيق.

– نبه أبو حيان على ضرورة تلقي هذا العلم عن الشيوخ، من خلال ذكره أستاذه، أبي جعفر محمد بن الزبير الغرناطي.

– معرفة مدى تأثر أبي حيان بشيوخه تسهم في فهم مصطلحاته واختياراته.

الهوامش:

[1] مقدمة ابن خلدون، ج1 ص753.

[2] العلوم التي يحتاجها المفسر حسب أبي حيان سبعة، علم اللغة، والنحو- ويشمل الصرف-، وعلم البلاغة، وعلم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلم الكلام، وعلم القراءات. ينظر: البحر المحيط، ج1 من ص12 إلى ص17.

[3] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص15

[4] ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج1 ص311.

[5] ينظر: الزيادة والإحسان في علوم القرآن، لابن عقيلة، ج7 ص409.

[6] منهم:

- بدوي طبانه، في البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى.
- شوقي ضيف، في البلاغة تطور وتاريخ.
- محمد العمري، في البلاغة العربية أصولها وامتدادها.
- أحمد مطلوب، في أساليب بلاغية: الفصاحة – البلاغة – المعاني.

[7] لخصت هذه المراحل من كتاب البلاغة تطور وتاريخ، لشوقي ضيف.

[8] المقدمة، لابن خلدون، ج1 ص762.

[9] ينظر: باب الغين فصل الباء، في لسان العرب، لابن منظور، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي. والبحر المحيط، لأبي حيان، ج4 ص271.

[10] البيان والتبيين، للجاحظ، ج1 ص113.

[11] ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، باب الفاء والصاد وما يثلثهما، مادة فصح، ولسان العرب، لابن منظور، باب الحاء، فصل الفاء، مادة: فصح.

[12] وهو تعريف ومذهب أبي هلال العسكري(ت395هـ)، ينظر كتابه: الصناعتين: الكتابة والشعر، ص7و8.

[13] سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، ص59.

[14] ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير الكاتب، ج1 ص24 وص26 و80 و81.

[15] مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي، ص415.

[16] التلخيص في علوم البلاغة، ص33، والإيضاح في علوم البلاغة، ج1 ص41. كلاهما للخطيب القزويني.

[17] التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص37.

[18] مفتاح العلوم، للسكاكي، ص162

[19] المصدر نفسه، ص423.

[20] المصباح في المعاني والبيان والبديع، لابن الناظم بدر الدين بن مالك، ص159.

[21] التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ص374.

[22] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير الكاتب، ج1 ص28.

[23] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص9و10.

[24] المصدر نفسه، ج1 ص10.

[25] المصدر نفسه، ج1 ص 15.

[26] المصدر نفسه، ج1 ص 32.

[27] ينظر: المصدر نفسه، ج1 ص6.

[28] ينظر: المصدر نفسه، ج1 ص12

[29] ينظر: المصدر نفسه، ج1 ص22

[30] ينظر: المصدر نفسه، ج1 ص22.

[31] ينظر: المصدر نفسه، ج1 ص23.

[32] المصدر نفسه، ج1 ص15.

[33] المصدر نفسه، ج1 ص49و50.

[34] المصدر نفسه، ج1 ص93و94و95.

[35] المصدر نفسه، ج1 ص146و147.

[36] المصدر نفسه، ج7 ص284و285.

[37] المصدر نفسه، ج7 ص315و316.

[38] له كتاب مفقود بعنوان "نظم القرآن"، ينظر: الفهرست، لابن النديم، ص57.

[39] له كتاب مفقود اسمه " إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه". ينظر: الفهرست، لابن النديم، ص245.

[40] له رسالة مطبوعة بعنوان " النكت في إعجاز القرآن".

[41] له رسالة مطبوعة بعنوان " بيان إعجاز القرآن".

[42] في كتابه "إعجاز القرآن".

[43] في الجزء السادس عشر من كتابه " المغني في أبواب التوحيد والعدل ".

[44] في كتابيه "دلائل الإعجاز" و" أسرار البلاغة "، خاصة الدلائل.

[45] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطبري، ج1 ص12و13.

[46] الكشاف، لجار الله الزمخشري، ج1 ص2.

[47] سيرد الكلام عن تفسيره ومقدمته ضمن المصادر والمؤلفات التي ذكرها أبو حيان في الفرع الأول من المطلب الثاني من هذا المبحث.

[48] ينظر: مقدمة تفسير ابن النقيب، لابن النقيب، ص9و10و12

[49] المصدر نفسه، ص15.

[50] ينظر: المصدر نفسه، ص16.

[51] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص6و7.

[52] ينظر: المصدر نفسه، ج1 ص18و19 البحر المحيط، لأبي حيان.

[53] المصدر نفسه، ج1 ص18.

[54] المصدر نفسه، ج1ص24.

[55] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص9و10.

[56] سأخص منهج أبي حيان البلاغي بحديث أوسع في المبحث الثاني، من هذا الفصل.

[57] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص15.

[58] أخرجه أبو داود في سننه كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، حديث رقم3652، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ما جاء في الذى يفسر القرآن برأيه، حديث رقم:2652، وقال عنه حديث غريب، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم:1672، وضعفه الالباني في ضعيف الجامع الصغير وزياداته، رقم الحديث:5736.

[59] ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج1 ص41.

[60] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1ص23.

[61] المصدر نفسه، ج1 ص36

[62] المصدر نفسه، ج1 ص36

[63] أغلب الدراسات في أصول التفسير تبنت تعريف أبي حيان للتفسير، ينظر: أصول التفسير في المؤلفات، دراسة وصفية موازنة بين المؤلفات المسماة بـ " أصول التفسير "، ص71و72.

[64] ينظر: النوع الحادي والعشرون من "البرهان في علوم القرآن"، للزركشي، ج1 ص311.

[65] وهو محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين، جمال الدين، يكنى ابن النقيب، البلخي الأصل، المقدسي الولادة والوفاة، الحنفي المذهب، أجمع كل من ترجم له على زهده، وصلاحه.كان مشاركا في العلوم، فقيها بيانيا مفسرا، أشهر مؤلفاته تفسيره "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير" ، ومقدمته التي صدر بها تفسيره وهي مدار الحديث. توفي بالقدس سنة 698هـ.

* ينظر ترجمته في: معجم الشيوخ الكبير، للذهبي، ج2 ص193، وفوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، ج3 ص382، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، للكنوي، ص168.

[66] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص26و27.

[67] مقدمة تفسير ابن النقيب، لابن النقيب، ص12.

[68] ينظر: المصدر نفسه، ص16.

[69] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص15

[70] مقدمة تفسير ابن النقيب، لابن النقيب، من ص15

[71] بتحقيق: زكريا سعيد علي، سنة 1415ه/1995م، بمكتبة الجانجي بالقاهرة.

[72] هو حازم بن محمد بن حازم، يكنى أبا الحسن، من أهل قرطاجنة ولد بها ونشأ في وسط ممتاز، مستفيدا من المكانة الاجتماعية السنية لوالده القاضي محمد بن الحسن(ت632ه)، ثم انتقل إلى مرسية، وغيرها من حواضر العلم الأندلسية. ولِمَا رافق الحالة السياسية بالأندلس في أول القرن السابع الهجري هاجر من الأندلس، فاستقر به المُقام بتونس التي كانت تحكمها الدولة الحفصية،ولم يغادرها إلى أن سلم الروح إلى باريها رحمه الله تعالى سنة 684ه.

فلا جرم بعد هذه التنقلات المتعددة، أن يكثر شيوخه حتى أوصلهم أبو حيان إلى ألفٍ، وقد زَكَّى حازم علمه من خلال إنفاقه على طلبته، ومن أشهرهم: ابن سعيد المغربي(ت685ه)، وأبو حيان الأندلسي(ت745ه)، وابن رُشَيْد السبتي (ت761ه)، وقد جمع أبو الحسن بين المكرمتين التدريس والتصنيف، ومن تصانيفه مقصورته في مدح المستنصر بالله، وغيرها من الأشعار، وله في النحو منظومة ميمية، ورد على المقرب لابن عصفور، على أن أكثر مؤلفاته شيوعا وأعظمها "منهاج البلغاء وسراج العلماء". وأما عن ثناء العلماء عليه، فقد وصفوه بأحسن الأوصاف النعوت، يقول ابن رُشيد: «حبر البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة، لا نعلم أحدا ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم؛ من منقول ومبتدع. وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل رايتها، أميرا في الشرق والغرب. وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حمّاد روايتها، وحمال أوقارها، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط، ويضرب بسهم في العقليات، والدراية أغلب عليه من الرواية».

* ينظر ترجمته في: الوافي بالوفيات، للصفدي، ج11 ص208، وبغية الوعاة، للسيوطي، ج1 ص491، أزهار الرياض، للمقري، ج3 ص171، ونفح الطيب، للمقري، ج2 ص584، مقدمة تحقيق منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بقلم محمد الحبيب ابن خوجة، من ص33 إلى91، وحازم القرطاجني حياته وشعره، لكيلاني حسن سند، من ص3 إلى ص24، وحازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، لعمر إدريس عبد المطلب، من ص9 إلى ص86،

[73] ينظر: التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان، ج4 ص85، وج11 ص60، وما ذكره عنه السيوطي في بغية الوعاة، ج1 ص491.

[74] بهذا الاسم طبع الكتاب، وإن كانت المخطوطة الوحيدة للكتاب بعنوان "المناهج الأدبية"، واعتبر المحقق أنها تسمية من وضع القراء أو النساخ. ولهذا لم يعرها اهتماما كون أصل التسمية موجود عند بهاء الدين السبكي(ت773ه) في شرحه لتلخيص المفتاح الموسوم بـ"عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"، وكذا عند الزركشي(ت794ه) في "البرهان في علوم القرآن". ينظر: مقدمة تحقيق منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بقلم محمد الحبيب ابن الخوجة، ص93.

– تنبيه: أغفل المحقق كلام أبي حيان الأندلسي والذي يعتبر أصلا نقله عنه الزركشي بألفاظه، كما أن السبكي تلميذه ولابد أنه تأثر بشيخه وهذا ما حمله على الاعتناء بكتاب حازم القرطاجني شيخ شيخه. يقول أستاذي أحمد نصري في مقال له بعنوان مقال الدرس البلاغي عند المفسرين أبو حيان الأندلسي أنموذجا: « «ووجدت محقق الكتاب ... يذكر شرح ابن السبكي " عروس الأفراح على تلخيص المفتاح "، ويذكر أنه استفاد منه وعلق عنه في عدة مواضع، ويذكر السيوطي أيضا وصاحب البرهان في علوم القرآن الزركشي ولا يتعدى ذلك. ولم يهتد الأستاذ المحقق رغم ما بذل من جهد إلى مصدر ذلك وقد يعجب إن علم أن الذي وراء ذلك هو أبو حيان الأندلسي وتزكيته له في بحره المحيط ولولا هذه التزكية من أبي حيان لما وجدنا أثر ذكر كتاب حازم في كتاب من كتب البلاغة العربية. وهذا ليس تخرصا فابن السبكي تلميذ أبي حيان جلس إليه وتعلم عليه، وابن السبكي كثيرا ما يباهي بهذه التلمذة وأثنى على شيخه أبي حيان أيما ثناء» ينظر: التفسير الأدبي للقرآن الكريم، كليات رسائل النور نموذجا، ص257

[75] البحر المحيط، لأبي حيان، ج ص

[76] نبه على هذا محقق مقدمة ابن النقيب، زكريا سعيد علي، ص68.

[77] ينظر: حازم القرطاجني ونظريات أرسطو في البلاغة والشعر، عبد الرحمن بدوي، ص 86، و مقدمة تحقيق منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بقلم المحقق محمد الحبيب ابن الخوجة، ص 115.

[78] ينظر مقدمة تحقيق منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بقلم المحقق محمد الحبيب ابن الخوجة، من ص95 إلى 111.

[79] ينظر المصدر نفسه، ص114.

[80] نال محمد الحبيب ابن الخوجة بتحقيقه للكتاب درجة الدكتوراه بجامعة السربون بباريس، إشراف ريجس بلاشار، بتاريخ 04 يونيو 1964م، بتقدير مشرف جدا. ثم طبع الكتاب ثلاث طبعات: ط1 سنة 1966م بتونس، وط2 سنة 1981 بلبنان، وط3 1986 بلبنان دار الغرب الإسلامي.

[81] التفسير الأدبي للقرآن الكريم، كليات رسائل النور نموذجا، ص257.

[82] يقول محقق الكتاب: «نلمس في هذا الكتاب جوانب من التعقيد تقوم في وجه مطالعه. فلغة حازم مستصعبة لا يمكن لمن يجهل الاصطلاحات المنطقية النفوذ إلى ما وراءها، كما لا يتسنى لمن لم يألف الاستعمالات الحكمية أن يدرك غرضه منها بسهولة... واتخذ لنفسه مصطلحات جديدة...وربما استمد من اليونانية بعض تلك المصطلحات». مقدمة تحقيق منهاج البلغاء وسراج الأدباء، بقلم محمد الحبيب ابن الخوجة، ص114.

[83] ينظر: المصدر نفسه، ص37.

[84] من خلال مقاله الموسوم أثر حازم البلاغي في مصنفات علوم القرآن، ضمن كتاب المؤتمر الدولي حازم القرطاجني وقضايا تجديد كتاب المؤتمر الدولي: حازم القرطاجني وقضايا تجديد الرؤية والمنهج في البلاغة العربية القديمة، جمع وإعداد عبد الرحمان بودرع. من ص229 إلى ص250.

[85] المصدر نفسه، ص 229و230.

[86] قال حازم:« **فأما ما يجب في المطالع على رأي من يجعلها استهلالات القصائد فمن ذلك ما يرجع إلى جملة المصراع. وهو أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة، وأن يكون المعنى شريفا تاما... فأما ما يرجع إلى مفتتح المصراع فأن يكون دالا على غرض القصيدة، وأن يكون مع ذلك عذب المسموع، ولا يكون ذلك مما تردد على ألسنة الشعراء فيا لمطالع حتى أخلق وذهبت طلاوته كلفظة خليلي، أو مما اختص به شاعر ولم يتعرض أحد لأخذه منه، كقول امرئ القيس: (قفا نبك)**» منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص282.

[87] ينظر: تقريب منهاج البلغاء، لحازم القرطاجني، لمحمد محمد أبي موسى، ص163.

[88] ينظر: أسباب النزول، للواحدي، ص98،97، والبحر المحيط، لأبي حيان، ج5 ص161

[89] المصدر نفسه، ج5 ص204

[90] المصدر نفسه، ج4 ص462و464. وذلك عند تفسيره آية الكرسي، بسط القول في "الحي القيوم"

[91] المصدر نفسه، ج5 ص168.

[92] المصدر نفسه، ج5 ص169.

[93] المصدر نفسه، ج5 ص173،172.

[94] ذكر أبو حيان ثمانية أقوال في تفسير الفرقان، من بينها الذي اختاره ابن عطية والظاهر أن اختيار أبي حيان هو أن الفرقان جنس الكتب السماوية. ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ج5 ص 174و175.

[95] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج1 ص399.

[96] البحر المحيط، لأبي حيان، ج5 ص175.

[97] البحر المحيط، لأبي حيان، ج5 ص176.

[98] المصدر نفسه، ج5 ص179.

[99] المصدر نفسه، ج5 ص186.

[100] ابن الزبير هو أحمد بن إبراهيم الثقفي الجياني الغرناطي، يكنى أبا جعفر، وأستاذ القراء. ولد بجيَّان، ثم انتقل إلى غرناطة وبزغ نجمها فيها، من أشهره شيوخه أبي الحسن علي بن عبد الله الشاري(ت649هـ)، وخلَّف تركةً من الطلبة والمؤلفات شهدت له بعلو المنزلة، أما طلبته فكثيرون في طليعتهما أبو حيان الأندلسي وابن جزي الغرناطي(ت741هـ)، وأهم مصنفاته " الذيل على الصلة لابن بشكوال" وهو المعروف بـ "صلة الصلة"، وفي المتشابه اللفظي في القرآن " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل"، و في علم المناسبة " البرهان في ترتيب سور القرآن" ، توفي بغرناطة سنة (708هـ).

*ينظر ترجمته في: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، ج1 ص231، وتذكرة الحفاظ، للذهبي، ج4 ص183، والوافي بالوفيات، للصفدي، ج6 ص140.

[101] البحر المحيط، لأبي حيان، ج1 ص15.

[102] البحر المحيط، لأبي حيان، ج2 ص357و358.

[103] ينظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، النوع السادس والخمسون في الإيجاز والاطناب، النوع التاسع من الاطناب: عطف الخاص على العام، ج3 ص240 معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، لأحمد مطلوب، ص132.

[104] البحر المحيط، لأبي حيان، ج2 ص358.

[105] البحر المحيط، لأبي حيان، ج9 ص140و141.